المجمع 20 (2025/1446). 93-130

الخطاب الصّوفي في شعر أحمد سويلم

جهينة عمر الخطيب[1]

Sufi Discourse in Ahmed Sowilam's Poetry

Johaina Omar Khateb

Abstract

This study aims to examine the relationship between contemporary Arabic poetry and Sufism. Many contemporary Arab poets incorporate Sufism into their poetry, raising several questions that the current study seeks to answer. *What motivates contemporary Arab poets to incorporate Sufism into their poems? Is the adoption of Sufi discourse a product of the poets' own life experiences, which they attempt to portray in their poetry akin to early Sufis, or is it a reflection of the contemporary understanding of Sufism as a sanctuary? What are the points of resemblance between the struggles of early Sufi poets and contemporary poets who incorporate Sufi discourses?* This comparative study attempts to answer these questions by looking at the poetry of Ahmed Sowilam, a contemporary Egyptian who incorporates Sufi poetry and discourses throughout his collections. The current study further examines the way Sufi concepts, ideas, and notions have been employed by contemporary poets such as Ahmed Sowilam to shed light on the sites of resemblance and departure between early and contemporary Sufi discourses.

Keywords: Arabic Poetry; Contemporary Poetry; Sufism; Discourse; Comparison; Ahmed Sowilam.

[1] كليّة سخنين.

الملخّص

يعدّ أحمد سويلم واحدًا من أبرز الشعراء المعاصرين في العالم العربي، وقد تميّز شعره بالعمق الروحي والتأمل الفلسفي. ويهدف البحث الموسوم "الخطاب الصّوفي في شعر أحمد سويلم" إلى استكشاف وتحليل العناصر الصّوفية في شعر هذا الشاعر.

يتناول البحث عدة محاور رئيسة، من بينها:

- **الخصائص الصّوفية في شعر أحمد سويلم:** يستعرض البحث السّمات الصّوفية البارزة في شعر سويلم، مثل استخدام الرموز الصّوفية، والتّأمل في الذات والعالم، والسعي للوصول إلى الحقيقة الإلهية.
- **اللغة والأسلوب:** يتم تحليل الأساليب اللغوية التي استخدمها سويلم للتعبير عن أفكاره الصّوفية، مثل استخدام الصور البيانية والاستعارات الموحية.
- **التأثيرات الصّوفية:** يدرس البحث تأثيرات كبار المتصوفة مثل ابن عربي والحلاج على شعر أحمد سويلم، وكيفية تجسيد أفكارهم ومفاهيمهم في قصائده.
- **توظيف المفردات الصّوفية في شعره:** يناقش البحث كيفية توظيف سويلم للخطاب الصّوفي لتحقيق وظائف أدبية وروحية، مثل تعزيز الروحانية الفردية والتواصل مع القارئ على مستوى أعمق.

ويهدف البحث إلى تقديم فهم شامل للخطاب الصّوفي في شعر أحمد سويلم، من خلال تحليل النصوص الشعرية واستخراج الدلالات الروحية والفلسفية الكامنة فيها. كما يسعى الباحث إلى إبراز الأهمية الأدبية والروحية لشعر سويلم في السياق الثقافي العربي المعاصر.

لا يمكن فصل الأدب في العصر الحديث عن تراثه، فيرى رؤوبين سنير أن هناك طريقتين يتواصل من خلالها المؤلفون العرب المعاصرون مع مصدرين رئيسين للإلهام: الأول هو التراث الأدبي العربي الغني، سواء تجسّد في نصوص أو تجارب ملموسة، حقيقية أو خيالية. والثاني هو الثقافات والآداب الأخرى التي أصبحت مصادر لاستعارات مباشرة أو غير مباشرة للأدب العربي. كلا المصدرين أساسي لفهم طبيعة الأعمال الأدبية العربية المعاصرة.[1] والتصوّف هو أحد الروافد التراثيّة التي جذبت شعراء العصر الحديث.

[1] انظر: Reuven Snir. *Contemporary Arabic Literature: Heritage and Innovation*; 20-21.

ترمي الدراسة كذلك إلى توضيح علاقة شاعر العصر الحديث بالصّوفية. فقد وظّف عددٌ كبير من شعراء العصر الحديث الصّوفية في شعرهم مما يثير عدة أسئلة ستحاول الدراسة الإجابة عنها:

- ما الدافع وراء توظيف الصّوفية في قصائد الشعراء في العصر الحديث
- هل اعتماد الشعراء على النزعة الصّوفية هو وليد تجربة حياتية شبيهة بحياة المتصوفة الأوائل أم أنهم وجدوا فيها ملاذهم للحديث من خلالها عن عصرهم
- وما هو وجه الشبه بين صراع المتصوفة الأوائل وصراع شعراء العصر الحديث.
- وكيف تم توظيف المصطلحات الصّوفية في شعر أحمد سويلم.

الكلمات المفتاحيّة: التّصوف، الاتحاد، الحلول، الإشراق، الخمرة الصّوفية، الشاعر أحمد سويلم.

مقدّمة:

طرأت تحوّلات عديدة على القصيدة الحديثة، وفي ضوء منطق هذه التّحولات ظهر توظيف التصوّف بكل تجلّياته سواء من ناحية المفاهيم أو التّناصات اللغويّة أو الشخوص أو الأحداث الشهيرة، وما إلى ذلك، لأنّ التّصوف كان أحد الروافد الغنيّة التي أمدّت القصيدة الحديثة بدماء الحيويّة، فيجوز أن نقول إنّها دفعت دماء الحيويّة مرّة أخرى إلى جسد القصيدة.

إنّ منطق العصر الحديث هو منطق قائم على الجفاف، وعلى سيطرة العلاقات القائمة على المنفعة، والانتهاب، واستغلال الأمم الكبرى للأمم الصغرى، والحروب والصراعات.

في ضوء ذلك أصبح الشاعر الذي ينشد تغيير الواقع غير قادر على فعل شيء سوى صياغة القيم البديلة وفضح الزيف المتفشّي في جسد العالم، ومحاولة استجلاء المفاهيم.

لذلك، فإنّ الشاعر كما في تجربة الشاعر أحمد سويلم، يسعى إلى التّخلي عن القيم النفعيّة والزّيف، وقيم الحياة المادية.

لا نجد في الشعر الحديث المصطلحات الصّوفية بألفاظها المباشرة كما في الرّسالة القشيرية مثلا، ولكنّنا نجدها بمعانيها، وبرؤاها، والرؤى لا تكون رؤى نقيّة أو موظّفة بشكل مدرسي، وإنما هي رؤى تخضع لمنطق التّحولات في ضوء الصراع مع القيم المزيّفة التي سادت منطق العصر الحديث.

فلا يقدّم الشاعر في القصيدة الحديثة منظومة معرفيّة يعيد إنتاجها، بل يأخذ شكلًا جديدًا، وهو الإيمان بالمبادئ والقيم، والرغبة بالتّرقّي والتطهّر بعيدًا عن زيف هذا العالم.

كتب عدد كبير من شعراء العصر الحديث شعرًا وظّف فيه الفكر الصّوفي، كان من أبرزهم صلاح عبد الصبور الذي عبّر بتجربة فنية صوفية فريدة عن فترة الستينيات وعن قمع الحريات فيها، فكتب مسرحيته "مأساة الحلاج" ليقصد بها مأساة المثقف. وقد اختار قناع الحلاج للتعبير عمّا يتعرّض له المثقّف من ظلم وقمع، لما وجده من شبه بين ما تعرّض له الحلّاج وما يتعرّض له المثقف المصري الذي يعيش صراعًا مشابها، صراعًا بين القول والفعل، تُجَسِّدُه حيرة الصّوفي: هل منحه الله الكشف لينير دربه وحده في اعتكافه، أم ليساعد الناس ويصلح من وضع المجتمع.

يواجه المثقّف العربيّ والمبدع حيرة مماثلة، هل يكون إبداعه بلا غاية ورسالة للمجتمع، أم أنّ عليه توظيف إبداعه لنقد الواقع والنّظام وتوعية المواطن.

من الشعراء من وظّف الفكر الصّوفي ليناقش مسألة الوجود وفلسفة ارتباط الروح بالجسد وإدراك حقيقة واحدة، أنّ الله هو حقيقة هذا الكون.

ثمّة مسألة أخرى تعتبر من العوامل التي تربط الشاعر بالمتصوفة الأوائل، رقيّ الروح وعزلة الصّوفي، والمبدع يتوق إلى عزلة مختلفة لكي يعيش مع حالة الكتابة وتفرّدها. العزلة من أجل إيجاد إجابات عن أسئلة وجودية عديدة. وتأتي هذه الدراسة لتحلّل الخطاب الصّوفي لدى الشاعر أحمد سويلم، وهو شاعر مصري عُرف بتوجهاته الصّوفية، وله العديد من الدواوين الشعرية التي تعكس تأثره بالفكر الصّوفي والفلسفة الروحية. تناول سويلم في شعره موضوعات صوفيّة متعددة واستلهم من تجارب الصّوفيين الكبار أمثال الحلاج[1]

[1] الحلاج، منصور الحلاج، (1273-1207م)، هو الحسين بن منصور، وكنيته أبو مغيث أو أبو عبد الله، شاعر ومتصوف من أصل فارسي، نال شهرة واسعة، وأثارت أفكاره وسيرته الجدل حتى الآن، عاش في فترة الخليفة المقتدر في العصر العباسي.

وابن الفارض[1] وجلال الدين الرومي[2].

ظهر تأثّر سويلم بهؤلاء الصّوفيين من خلال استخدامه للرموز الصّوفية والمعاني الروحية مثل: الطير، التروية، التطهير، الكشف وغيرها.

وقد هدف إلى بناء جسور من التواصل الروحي بين الشاعر والمتلقّي، وسعى إلى تقديم تجربة روحية عميقة تدعو إلى التأمل والتفكر والتواصل مع الذات.

ستقوم الدراسة بتحليل دواوين الشاعر أحمد سويلم[3] الآتية:

---

[1] ابن الفارض، (-1235: 1181م) هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوفين، وكانت أشعاره بأغلبيتها في العشق الإلهي حتى أنه لقّب بـ «سلطان العاشقين». والده من حماة في سوريا، وهاجر لاحقًا إلى مصر. (ينظر ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki)

[2] جلال الدين الرومي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن حُسَيْنَ بَهَاءٌ الدِّين البَلَخي الْبَكْرِ، (604-672هـ) = (1207-1273م). تركت أشعاره ومؤلفاته الصّوفية والتي كتبت أغلبها باللغة الفارسية وبعضها بالعربية والتركية، تأثيرًا واسعًا في العالم الإسلامي.

[3] **أحمد سويلم:**

- مواليد بيلا / كفر الشيخ . مصر 1942.
- بكالوريوس تجارة 1966.
- مدير عام النشر بدار المعارف (1977-1995).
- نائب رئيس تحرير مجلة أكتوبر (1995-2002).
- مستشار النشر بدار المعارف (2014-2015).
- مدرس مادة أدب الأطفال . كلية تربية حلوان (1990-1995).
- مدرس مادة نشر الكتاب بأكاديمية أخبار اليوم (2003-2006).
- مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة.
- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب عضو نقابة الصحفيين/ رئيس مجلس إدارة جمعية الأدباء.
- رئيس تحرير سلسلة الإبداع الشعري المعاصر (الهيئة العامة للكتاب) 2004-2014.
- رئيس تحرير سلسلة مختارات (الهيئة العامة لقصور الثقافة).
- حاصل على جائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب لشعراء الوطن العربى الشباب {1965/ 1966}.
- حصل على كأس القبانى فى الشعر 1967 . سكرتير لتحرير مجلة الشعر {1976/ 1977}.

ديوان: **الشوق في مدائن العشق** 1987.

ديوان: **شظايا** 1993.

ديوان: **لزوميات** 1997.

ديوان: **جناحان إلى الجوزاء** 2000.

ديوان: **ما لم يقله السندباد** 2015.

ديوان: **مكابدات أول العشاق** 2019.

تُظهر قصائد الدّواوين ما يدور داخل الذات الشاعرة من قلق وفرح وحلم وحبّ. في قالب صوفي.

- حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر 1989. الدكتوراه الفخرية فى الآداب من الأكاديمية العالمية للثقافة والفنون 1990 "كاليفورنيا". جائزة كافافيس 1992. جائزة أندلسية للثقافة والعلوم 1997.
- حصل على جائزة الدولة للتفوق فى الآداب 2006.
- حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب 2015.
- مثّل كتاب مصر وشعراءها في المهرجانات الدولية والعربية.

وهذا بعض من إصدارته: المسرح الشعرى:

* أخناتون	دار المعارف	1982
* شهريار	هيئة الكتاب	1983
* الفارس	هيئة الكتاب	2001/1995
* الأعمال المسرحية (3 مسرحيات)	هيئة الكتاب	1999
* المجهول المعلوم	هيئة الكتاب	2009

دراسات:

* شعرنا القديم رؤية عصرية	المجلس الأعلى للثقافة	1981
* المرأة فى شعر البياني	هيئة الكتاب	1984
* أطفالنا فى عيون الشعراء	دار المعارف/ هيئة الكتاب	2002/1985
* محمد الهراوى شاعر الأطفال	المركز القومي لثقافة الطفل	2008/1986

وظّف سويلم اللغة الرمزية لتحمل الكلمات فيها معنيين، المعنى الظاهر والمعنى الباطن، "وإذا كانت اللغة في التجربة الشعريّة عامّة هي نتاج انزياح ومجاوزة للغة في صورتها المعجميّة وقواعدها المعياريّة، فإن التّجربة الشّعريّة الصّوفيّة لها أشكالها الخاصة، فهي لا بد أن تكون في جوهرها انزياحًا على الانزياح ومجاوزة للمجاوزة."[1]، "فأدّى توظيف المفردات الصّوفية إلى غموض الخطاب الصّوفي في أشعارهم كون اللغة الصّوفية لغة رمزية فتصبح اللغة: مجلى الشّاعر لا محبسه لا يلبسها وإنما يتجلى فيها"[2]

لغة الحبّ ومفرداته

الشّوق إلى لقاء الله، بالرجوع إلى مصطلحات التّصوف، نرى ابن العربي يعرّفها بقوله "الألوهيّة مرتبة للذات لا يستحقها إلا الله فطلبت مستحقّها"[3]، وتؤكّد الباحثة (كلود عدس) مفهوم الحب الإلهي بأنّه الفناء التام للإرادة في المحبوب، فالله لم يخلق العالم إلا بالحب"؛ هذا الحب هو أولًا حب لله نفسه، لجماله الخاص الذي يرغب في إظهاره، ثمّ، بالتالي، للمخلوقات التي تعكسه[4].

وظّف الشاعر أحمد سويلم مفردات العشق موحيًا للمتلقي أنّه عشق يجمع الرجل والمرأة، ليكتشف بالتّالي أنّه يقصد العشق الإلهي، وقد استخدم مفردات عديدة:

العشق، الشوق، القلب.

فنعيش رحلة العاشق نحو المعشوق ونبدأها بالعنوان: الشوق فى مدائن العشق

[1] عباس يوسف الحداد، العذل الديني والمعرفي في الشعر الصّوفي، 281.

[2] أدونيس، صدمة الحداثة، ط.5 (دار الفكر، 1986)، 282.

[3] سعاد الحكيم، المعجم الصّوفي، دار. دندرة للطباعة والنشر، 85.

[4] انظر: Claud Addas. *The Experience and Doctrine of love in Ibn Arabi* https://ibnarabisociety.org/love-in-ibn-arabi-claude-addas; Translated from the French by Cecilia Twinch on behalf of the Muḥyīddīn Ibn ‘Arabī Society for the Symposium at Worcester College, Oxford, May 4–6, 2002.

{حاشية على منطق الطير لقطب التّصوف الإسلامي فريد الدين العطار[1]}

تتضح سيميائية العنوان من خلال التأكيد على مفردات الحب وتوظيفه لكلمتي الشوق والعشق، ليأتي العنوان الفرعي موضحًا التّناص مع كتاب منطق الطير للصوفي فريد الدين العطار.

أيقظَنى من نومى/ قال: انهضْ.. ينتظرُك خلف الباب/ ملَكانِ كريمان../
جاءا من خلفِ الليلِ يشقَّان/ جوهرةَ الصدرِ المطفأة الألوان[2]

وتبدأ القصيدة بمشهد درامي وبداية رحلته، بعد أن تمّ إشعال الروح "يشقّان جوهرة الصدر"

قال: تقدم يا ولدى/ أوصيكَ بما يفتحُ في وجهِك كل الأبواب/ ما أنتَ سوى طائر../
ينتقلُ في سقف العالم.. يهبطُ في جُب الشوق/ حتى يَفْنَى في مدن العشق..

وهنا الطائر رمز الحرية فالجسد يصبح خفيفًا عندما يحلّق باحثًا عن الله "ينتقل في سقف العالم يهبط في جب الشوق".

و"يعتبر الطير رمزًا هامًا في الأدب الصّوفي، وخاصةً في قصص المعراج ورسائل الطير، إذ يرمز المتصوفة به للروح أو النفس ورحلتها نحو الانعتاق والتحرر من سجن الجسد، وهذه الفكرة هي أساس رحلات الطير ورسائلها وقصصها، والتي برع المتصوفة في إبداعها كما فعل البسطامي في معراجه، والحلاج في طواسينه، وابن سينا والغزالي في رحلة الطيور إلى ملكها.

[1] فريد الدين العطّار (540-618هـ) شاعر فارسي متصوف، قال البعلبكي أنّه» يُعتبر أحد أعظم الشعراء والمفكرين الصّوفيين المسلمين .«عُرف بغزارة الإنتاج، وقد تركت أعماله أثرًا ملحوظًا في الأدب الفارسي وفي الآداب الإسلامية الأخرى أيضًا. أشهر آثاره منطق الطير وهو شبه ملحمة نقع فيها على أوضح تفسير شعري للتصوّف الفارسي (يُنظر: ويكيبيديا،% /https://ar.wikipedia.org/wiki)

[2] أحمد سويلم، **ديوان الشوق في ميدان العشق**، 1987، 13.

ويشكّل رمز الطير أيضًا محور كتابات السهروردي القصصيّة، ورسائله الرمزيّة، كما تعتبر منظومة منطق الطير أبلغ مثال على تمازج رمز الطير بالمعراج الصّوفي."[1]

فهنا تصوير وتوثيق لرحلة بحث الروح عن الذات الإلهيّة، فهي مشتاقة إلى الاتحاد فيها.

ويتابع الشاعر في توظيف لغة الطير، في تناص مع العطار عندما تحدّث عن الطير "ويعدّ التناص من المفاهيم النقدية التي تنتمي إلى مرحلة ما بعد الحداثة، حيث انتقل الاهتمام النقدي من العناية بالمؤلّف إلى العناية بنتاجه الأدبي (المؤلَف)، فاستحوذ بذلك النص على جلّ البحوث والدراسات الأدبية، فتحوّل النص إلى عالَم، ونشأت بذلك النظريات النصيّة التي اهتمت به، ومنها نظرية التناص. يعدّ التناص الصّوفي والأسطوري مصدرين من مصادر الإلهام بالنسبة للشاعر المعاصر إذ يتمكّن من خلاله العودة إلى روح العصر ليكشف عن آلامه وآماله وعن هموم أمّته وطموحاتها[2].

فسعي الصّوفي وراء الذات الإلهيّة يمر بمراحل، وقد تحدّث الإمام الغزالي عن هذه المراحل وأكّد أن المرحلة الأولى هي النية الصادقة والقصد هو عزم القلب على الفعل أو الترك لله، والمرحلة الثانية إخلاص العمل لله من غير شريك، والمرحلة الثالثة هي اتّباع أوامر الشرع بالصبر وترك الهوى، والقاعدة الرابعة العمل بالاتباع لا بالابتداع، فلا يتبع أصحاب الأهواء ويلتزم طريق أهل السنة ويؤكّد هذه المسألة في القاعدة الخامسة في علو الهمّة و اتّباع السنّة، والقاعدة السادسة الذلّة أمام قدرة الله وإرادته وليس العجز عن العمل والكسل عن الطاعات.

[1] وفاء عبد اللآوي،" الطير في الأدب الصّوفي، قراءة رمزيّة في نماذج مختارة، مخبر الخطاب الصّوفي"، مجلة علوم اللغة العربية 14، (2022): 3-15.

[2] داودي وهاب، "التناص الصّوفي والأسطوري في شعر إبراهيم الغماري."**مجلة التواصل الأدبي**، بجامعة باجي مختار / عنابة (الجزائر)، مجلّة نصف سنوية محكّمة ومفهرسة، ومتخصّصة، تُعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنّقد والتّرجمة، 1/9 (2020): 146-132.

أمّا القاعدة السابعة فهي الخوف والرجاء وتجنّب المعاصي، والقاعدة الثامنة دوام الذكر والقاعدة التاسعة المداومة على مراقبة الله من خلال مراقبة القلب وتعميره بذكر الله، أما القاعدة العاشرة فهي معرفة ما يجب الاشتغال به من العبادات[1]

ووظّفت الذات الشاعرة لغة الطّير لتتحدّث عن بعض هذه المراحل:

المرحلة الأولى: وجود الدافع: "العشق وشاحك"

المرحلة الثانية: الإيمان بقدرته على قهر الجسد والتحليق " الريح جناحك"

المرحلة الثالثة: مرحلة التنفيذ من أجل مرحلة الطيران، التحليق:

الحبو فوق الأرض ومن ثمّ الصعود/ قلت: وماذا أملك من أجنحتي يا مولاي الطيب قال: الريحُ جناحُك/ والعشقُ وشاحُك/ جرّب أن تتركَ أقدامَك تحبُو فوق الأرض/ تصعدْ مخترقًا في طرفةِ عين..

المرحلة الرابعة: مرحلة التعليم التي يمرّ بها الصّوفي، ومن ثمّ يقدِّم العظة للناس

"قلت: وماذا بعد../ قال: كن سربَ الطير السابح/ والصحراءَ الممتدة/ والليلَ الصامت والمطرَ الساقطَ بالطلع/ وحباتِ الشمسِ على جفنِ الفقراء/ كن فى عربات الشوقِ جوادًا في غاباتِ الروْعِ فؤادًا/ وابعث في الليلِ إلى المهمومين.. ودادًا"

وتدعم المفردات اللغوية الصّوفية هدف الشاعر

"الصحراء الممتدة": رمز للقدرة الشاسعة التي منحها الله للصوفي ليمرّ بمرحلة الكشف "الليل الصامت": قدرة الصّوفي على التفكير والوصول إلى حلول "المطر الساقط بالطلع": فالمطر لا يُسقط مطرًا بل طلعًا، والطلع هو الحبيبات التي تظهر على شجر النخيل قبل ظهور التمر والتي يتمّ تجميعها عن طريق النحل لإطعام الملكات واليرقات، ففي رحلة الصّوفي المثقّف المفكّر المبدع، عندما يكتشف النور في قلبه ينثره على الفقراء.

ويذكّرنا هذا بمأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور ولصراعه بين الكلمة والفعل، وهنا يرمز

[1] يُنظر، أبو حامد الغزالي، **المنقذ من الضلال** (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، 2003): 127-121.

الشاعر أحمد سويلم للصراع ذاته، ويتّخذ اللغة الصّوفية ودلالاتها، فيقول: إنّ من واجب الكلمة أن تحارب من أجل الشعب ورفع الظلم عن الفقراء والمهمومين.

لقد تمّ توظيف المفهوم الصّوفي للتّحدث بشكل رمزي عن قدرة المفكّر والمبدع على التغيير

يا مولاى الطيب/ هل تلمِسُ فى قلبى نورًا/ حتى توصيَنى أن أتجرّدَ من نطفتي
السوداء أو أنزعَ من وجهى عينىَ المطفأتين../ قال: أراك.. شققتَ الصدر/
فروَّاك البحر../ وطهّرك الملح../ وأطعمك العشقُ الأسرار

وهنا مراحل التصوف:

التروية "فروّاك البحر"

التطهير "وطهّرك الملح"

والكشف "أطعمك العشق الأسرار... ومزقت الأستار"

يا مولاى../ هل تنظرُ ما أنظره الآن/ أو تسمعُ ما أسمع../ أنظر جبلًا من نورٍ..
ودعاءً يتوهجُ في الليل/ يصعدُ مثلَ البرق الخاطِف.. أو مثل النصل/
ويكادُ يشطّر منى ما بقي من القلب/ صاح: تأدّب.. يا مقرور القلب/
إنك فى جبلِ الحب../ ازرعْ فى قمتِه كلماتِك/ وتحدّث بلسانٍ لا يُخطئ/
صحتُ: أجرنى.. تتملّكنى الرَّعدةُ والخوف/ أخشى أن أسقُطَ من عليائى../
ربّت فوق الصدر:/ لا يسقطُ من يصعَدُ فى النور/ لا يهبطُ من بالعشقِ يمُور

وهنا تمثيل واضح لصراع الصّوفي، المثقّف، المبدع، الخوف من أن يخسر النور الذي وضعه الله في قلبه "أخشى أن أسقط من عليائي"

والنور مفردة صوفية قال عنها ابن عربي: "كل وارد إلهي يطرد الكون عن القلب"[1]

وتتابع الذات الشاعرة في رحلتها الصّوفية، رحلة بحثها عن ذاتها، عن سبب وجودها ورسالتها في هذه الحياة:

[1] محي الدين ابن العربي، **رسائل ابن العربي**، وضع حواشيه: عبد الكريم النّمري، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001)، 415.

يا مولاي الطيب/ ما كنتُ عصيا/ لكنى.. علَّمني عصرِي أن أدفعَ عُنقي/
من أجل الكلمات/ لو أنى أُبطئُ في قصدِ النور/ فأنا بالحب.. كفور/
أشعرُ يا مولاي الآن../ أنى إذ أتحاورُ أو أتجادلُ.. أو أَفْنى في كلماتي/
فأنا أغتسلُ بهذا النور/ ووراءي بحرُ الديجور../ أشعر أنى أَفْنى في مدنِ العشق/
حين أبوحُ بما لا رأت العين/ وما لا تسمعُه الآذان..[1]

وتتكاتف المفردات الصّوفية لتتتابع في رحلة الشاعر الروحية:

النور، الديجور، ففي رحلته يريد أن يخرج من الظلمة، من الجمود الفكري ليصل إلى النور، حتى لو كلّفه الأمر عنقه:

"لكنّي.. علَّمني عصرِي أن أدفعَ عُنقي/ من أجل الكلمات"

ولكي يصل إلى النور فإن الحوار والجدال والكلمات هي الطريق:

"أشعرُ يا مولاي الآن../ أنى إذ أتحاورُ أو أتجادلُ.. أو أَفْنَى في كلماتي/
فأنا أغتسلُ بهذا النور/ ووراءي بحرُ الديجور.."

ويكمل الشاعر مع مفردات الصّوفية من خلال التعابير التالية:

الشوق، العشق، المشكاة، الاشتعال

فيطغى العشق الإلهي على الأبيات التالية:

سواكَ.. لا طيرٌ.. ولا غزالْ[2]/ سواكَ.. لا شوقٌ.. ولا مُحالْ/ كلُّ التراتيل التي خلتها../
تُشعلني../ لا تملكُ الا اشتعالْ../ وأنتَ مشكاتي التي أصْطفي/ تُضيئني وحدي
بسحر الجمالْ/ لا تخشَ إقبالي ووخزَ الهوى/ فالعشقُ يا مولاي.. صعبُ المنالْ/
وحجّتي../ ألاّ يصحُّ الهوى/ بغير أن ترضى.. وألا تُطالْ.!

ويظلّ الصّوفي يبحث عن الحقيقة ليصل إلى الكشف

[1] أحمد سويلم، **ديوان: الشوق في مدائن العشق** 1987، 16-15

[2] أحمد سويلم، ديوان: **شظايا**، 1993، **قصيدة وخز الهوى**، 30.

أنتِ حين انقسمتِ على حافة الصَمْت/ فجرتُ عينيكِ سنبلتْين../
وساقْيكِ صَفصافتْين/ ولونَ احتراقك شمسًا../ وأنا../ حين أضرَمَتِ النار في داخلِي/
كنتِ خمرَ احتوائي/ وشعري/ وأسطورةَ السَّفر المُستحيل/
فكيف إذا جئتُ أسألُكِ البَوْح/ أنكرتِ حُلم اشتهائي/ وخمري/ وشِعري.؟/
أفي العشق يا قَدَري/ عاشقٌ مستبدٌ/ وآخرُ مستعبَدٌ بالعطاء.!؟

فجاءت مفردات الاحتراق والشمس، والخمر لتكتمل الرحلة الروحية، رحلة البحث عن الحقيقة واكتشاف الذات، فالخمرة الصّوفية هي خمرة رمزيّة، أي السكر بالله، وبنشوة الالتقاء بالنفس الكلية.

وفي قصيدة "صفو" تظهر دلالات الصّوفية من خلال التركيز على فكرة صفاء القلب التي يتّسم بها الصّوفي:

ظبيٌ إلى حُرمِة العشاقِ/ ينتسبُ../ رمْيُتُه.. فانتحَى.. يبكي.. وينتحبُ../
ألقيتُ سهْمي../ وأعلنت الوفاءَ له/ فلامني../ والهوى في القلب يضطربُ../
فقلتُ: عُذْرًا حباكَ الله نُصْرتَه/ فكنتَ لي نعمةً/ تصفُو.. وتنسَكبُ../
يا حُسنَ ما سرَقَتْ عيني محاسنها/ وسرقةُ العين لا يُجدي بها عَتَبُ../
الحدُّ يقطعُ أيدي السَّارقينَ/ وليس.. يملكُ الحدُ/ قط العْين.. أو يجبُ.!

وفي ديوان "لزوميات"، تتّضح مفردات الكشف الصّوفي في قصيدة لزومية الشوق

القلبُ يتوقْ...[1]/ للرؤيةِ ... حين اللغةُ تضيقْ/ ولكشْف السَّتْرِ عن العاشقِ والمعشوقْ
فمفردة الستر يقابلها مفردة الكشف

فعندما يختار الله عبدًا ينير له الطريق، ويكشف له الحقيقة، فتعجز مفردات لغته عن التعبير مهما حاول:

"القلب يتوق للرؤية حين اللغة تضيق"/ عن تُربة هذا الغرْسْ.../
فتَّحتُ عيونَ القلبْ

[1] أحمد سويلم، ديوان **لزوميات**، 1997، قصيدة لزومية الشوق، 41.

فالكشف حين يمنحه الله يبصره، لتصبح لقلبه عيون، فهو يرى ببصيرته وليس ببصره

"أعلنتُ على أجنحةِ الطيرِ/ لغاتِ الحبْ..."

ويمتلك عندها لغة غير لغات البشر العاديين... إنها لغة الحب الإلهي.

وتوسَّلْتُ أرتّلُ آياتِ القُرْبْ

لتضيء بصيرة قلبه عليه أن يشرب كأس خمر الحقيقة، ليصل إلى مرحلة التطهير بقهر الجسد وعلو الروح:

لعلّي... تُشْعِلُني جَذْوةُ هذا الدَّرسْ.../ عتقتُ كؤوسَ الكرْم/
أنضجتُ الخبزَ على أوجاع العظْمْ/ فلعلّي يُقْبَلُ منّي هذا العَزْمْ/ ولعلَّ تُطهّرَني -في موقدِها- الشَّمْسْ.../ طأطأتُ برأسْي.../ فاجأني لسْعُ الخوفْ/ قلتُ لعلَّ لهيبَ الشوقِ تجسَّدَ في طِيْفْ/ ولعلي بعد قليلٍ.../ أُغمضُ عينيَّ... كأني يرْتدُّ إليَّ الطرْفْ/ وينطلقُ بأحلامي القوسْ/ عفوًا/ كنتُ أسابقُ وهْمِي/ وأودُّ ملاذًا/ فغدا قلبي... والدمعُ عليه/ أفلاذًا... ورذاذا/ قلتُ: السَّلْوةَ يا ربَّ السَّلْوة/ ذاك قضائي... لا رجعةَ فيه... مَعَاذَا/ اعذُرْني يا ربَّ العُذْر/ سوَّيْتَ القلبَ بطَمْيِ الشَّوقْ/ فلم ألبَسْ في خَطْوِي/ سيفًا... أو دِرْعًا... أو تُرس.../ عفوًا.../ ما كنتَ إلهَ البخْسْ/ ما كنتَ إلهَ البخْسْ...

ونلحظ مفردات صوفية:

لهيب الشوق

طمي الشوق

وهي مشاعر تعتري الصّوفي المفكّر المبدع عند مروره بمرحلة التطهير.

ويتابع الشاعر في قصيدة "لزُومِيَّة الجَمَال" مراحل جهوزية الصّوفي لهذا العشق:

اللَّظى ... آيةٌ ... ومذاقْ/ وأنا فوق أحْصِنَةِ البُرقْ/ فارسٌ يتطهَّر بالجُرحْ

والتّطهر بالجرح مفارقة تُظهر الدلالة الرمزيّة، فمعاناة الصّوفي أو المثقف المبدع في رحلته الروحية في اكتشاف الذات هي في محاولته إيصال رسالته، فمن الطبيعي أن يتعرّض لهجوم

ورفض ووجع، ولكنّها مرحلة من مراحل التطهير لا بدّ منها، فالصّوفي لن يعرف الأشياء إلا من خلال نقيضها، فلا بدّ أن يمرّ بالألم والوجع والحزن ليصل إلى الفرح والنشوة:

أهْوَى جنونَ السِّباقْ/ أتحدَّى الشَّطَطْ.../ واِلهِ حين تصفُو ابتسامُ الشِّفاهْ/
وتطيبُ الحياهْ.../ وأصرخُ: أعشقُ هذا الجمالَ/ وليس بقلبي سواهْ/
فتنظرُ كلُ العيون إليَّ/ يعزُّون في... عقْلِيَ المُخْتَلَطْ.../ عاصفٌ في بحارِ الغَرَقْ/
ضاقتْ الأرضُ ضيقَ الحَدَقْ/ أيَّ ذنبٍ جنَى لَو فؤادي عشِقْ/
واكتوَى في لهيب الهوى وانخرطْ.../ حُسْنُه لا يُعادِلُه أيُّ حُسْنْ/
غُصْنُهُ لا يُطاوله أيُّ غُصْنْ/ ما درَى القلبُ/ ما لَمسَ الكفُ من قَبْلُ/
ما أُشْبِعتْ بالملاحةِ عينْ/ إنه دُرَّةٌ... بين كلِ الذُرَا/ تُلْتَقَط.../
لا تلومُوا اشتعالَ الضُّلوعْ/ لا تلوموا السَّفائنَ في بحرِها/ لا تودُّ الرجوعْ.../
ليس من ذاق طعْمَ الجمالِ/ كمن لمْ يذُقْ . بالولوعْ.../ إنه صاعدٌ/ صاعدٌ/
يتحدَّى السَّقَطْ...

فرغم أن الأرض ضيّقة مع اتساعها ورغم صعوبة الرحلة إلّا أنه وحده يعلم أن الأمر يستحق هذا العناء وهي مرحل الصعود إلى الحق.

وتتّضح قوة المفردات الصّوفية المتضادة لخدمة ما يرمي إليه الشاعر:

صاعد/ سقط

ويتّضح في قصيدة "لزوميّة النّور" بدءًا بالعنوان، التأثر الصّوفي، فالصّوفي يسعى ويتوق إلى النور الإلهي

أضاءني حين اشتهيتُ الضَّوْءْ/ أسْقطَ كَلَّ غُمةٍ/ سقوطَ النَّوْءْ/
وأمطر القلبَ بفَيْءِ العشقِ/ باسطًا جناح البُرْءْ/ وذبتُ في الشغَف../
أدركتُ أن أحرفي تألَّقتْ/ وأنها تبدأ من جديدِ ترتوي/ ولا تحسُّ بالعنَتْ

فالذات الشاعرة تجد النور بلهاثها وراء العشق الإلهي، فهناك تشعر بتألّقها وحريتها وأن نفسي لم تعُدْ أمّارةً/ لأنها تنالُ ما اشتهتْ..

ويكون هذا الانتشاء والفرح بقهر الجسد، فتقهر النفس الأمّارة بالسوء، وفي عبارة "أن نفسي لم تعد أمارة" تناص قرآني من سورة يوسف، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة (يوسف) "وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ"، والحديث هنا عن النّفس الأمّارة بالسوء، تلك التي يذهب الصالحون إلى أنّها العدو الأوّل الذى يواجه الإنسان، وأنها تضلّنا ولا تأخذ بأيدينا إلى الخير.

وتطرحُ السَّرَف/ قبضتُ هذا القبسَ الناريَّ/ بالعنان../ عرَّفني كيف انطويتُ عنه/
-عمري الماضي-/ وكيف أنني خسرتُ في انطوائيَ الرّهانْ/ عرَّفَني حين يشفُّني الوجدُ/
طلاقةَ اللسانْ/ وكيف في حضرةِ وجهِهِ../ أقفْ../ هل للعطاءِ بعدُ../ أن يقلَّ/
أو يُقبضَ/ أو يغيمْ..

وفي جهاد النفس يقترب من الذات الإلهية

وهل لمن ذاق حلاوةَ السَّنا/ لا يطلبُ النجومْ../ وهل لمن ودَّعَ ليلَ النفسِ/
يشتهي الغيومْ../ ويركبُ الصّلفْ../ ها.. كلُ شيءٍ في الخلايا يعترفْ/ منذ أُضيءَ
القلبُ بالعشقِ/ اصطفيتُه قلبًا/ فشفَّ البَوْح/ ونوَّرتْ به الأقلامُ والصحفْ.!

فالاختيار الحقيقي هو اختيار الذات الإلهية.

ولجأت الذات الشاعرة إلى التناص الديني من خلال الحديث النبوي:

جاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي أنّه صلى الله عليه وسلم قال له: "واعلم أنّ الأُمة لو اجتمعت على أَن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الكلام كله كناية عن تقدّم كتابة المقادير والفراغ منها، ليس الآن، ولكن منذ أمد بعيد، لأنّ الصحف إنّما تجفّ، أو بالأحرى يجفّ المداد الذي كتبت به . إذا فرغ من الكتابة وارتفعت الأقلام عنها مدة.

فالروح خُلقت لكي تتّحد بالنفس الكلية وهذا مقدر لها منذ بدء الخليقة.

وفي لزُومِيَّةُ البَوْح[1] يحمل العنوان شقًّا من مصطلحين صوفيّين، البوح يقابله السّر والسّر هو حقيقة وكنه الله وأسرار الحياة لا يعرفها إلا الله، ويؤمن الصّوفيون أن الله يبوح ببعض الأسرار للصّوفي، فمن هنا جاء مصطلح البوح.

في بُعده.. قُربي/ في قُربهِ.. بُرْءٌ من الكرْبِ/ في لومهِ.. التكفيرُ عن ذنبي

ويظهر هنا لوم الذات من أجل الخلاص وتطهير النفس بالمفهوم المسيحي، والذي يقابلهما الزهد والإشراق بالمفهوم الصّوفي.

ماذا عساي أودُّ من بذْلِ/ أقسمتُ ما باح اللسان.. وما/ إلا بَوحْي العشقِ حين همَى/
وسهْمِ هذا الشوقِ حين رَمَى/ فغدا لساني في الهوى نَصْلي/ قطَّرْتُ من كبدِ السَّما
قَطْري/ روَّى سقامي../ فارتوَى شِعري../ جرى يمدُّ الخصْبَ في قفْري/
ويُشهد الدنيا على وصْلي/ مهما يماطلْ في هواه معي/ فاللوحُ منقوشٌ به وَلَعِي/
والبَوْح آهاتٌ من الوجَعِ/ والعشقُ قد صحَّتْ به سُبْلي

المهيمنة: المفردات الصّوفية المهيمنة: العشق والشوق، ويقصد عشق الذات الإلهية والشوق إلى لقائها، وتصف الذات الشاعرة رحلة الصّوفي العاشق نحو المعشوق:

قلت له: عظني../ قال: قِف في ظلِّ الطير/ فإذا حام../ حلِّق بجناحيك../ وظلِّلهُ/
قلت له: زدني../ قال: للعاشق عينان/ عينٌ للحب../ وعينٌ للمحبوب../ لكن../
ما أبعد أن يكتمل الوجدُ بلا عينين/ قلتُ: له كيف تراني../ قال: جذوةَ شوقٍ/
لا تُطفأ/ خطوًا محمومًا لا يهدأ/ لغةً من نور/ فاقبض فوق عنان براقك/
وتخلّص من خوفك/ وابدأ..!

فالذات الشاعرة تتوق للنور، لحريّة التعبير وللحياة كما يتوق الصّوفي لقاءه واتحاده وحلوله بالنفس الكلية.

[1] أحمد سويلم، ديوان **جناحان إلى الجوزاء**، 2000، 11-10.

وفي ديوان "ما لم يقله السندباد"، 2015، يباغتنا عنوان قصيدة "أحوال العشق"[1] بكلمة العشق لنتساءل عن أي عشق تتحدّث الذات الشاعرة هل هو العشق الحقيقي أم العشق الصّوفي:

- يا الذي لامني في الهوى/ هل قطفتَ ثمار شجيراته/ وتذوّقتها/
وتنور وجهك في نور مشكاته

ونرى مفردات "نور مشكاته" لندرك مباشرة أنّ الذات الشاعرة تتناص مع الآية القرآنية في سورة النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (35).[2]

لندرك أنّ العشق المذكور في العنوان يدلّ على العشق الإلهي، فتؤكد الآية بأنّ له نور السماوات والأرض يدبّر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فهو- سبحانه - نور، وحجابه نور، به استنارت السماوات والأرض وما فيهما، وكتاب الله وهدايته نور منه سبحانه، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض. مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكُوَّة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوَّة نور المصباح فلا يتفرّق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنها -لصفائها- كوكب مضيء كالدُّر، يوقَد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، يكاد زيتها -لصفائه- يضيء من نفسه قبل أن تمسّه النار، فإذا مَسَّتْه النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من

[1] أحمد سويلم، ديوان: **ما لم يقله السندباد**، 2015، 4.

[2] سورة النور: 35.

إشعال النار، فذلك مثل الهدى يضيء في قلب المؤمن. والله يهدي ويوفّق لاتباع القرآن مَن يشاء، ويضرب الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء.

فالذات الشاعرة تتحدّث عن تذوّقها للنور الإلهي، وتأتينا مفردة سبحات الهوى، وسُبُحَاتُ وَجْهِ اللَّهِ: أَنْوارُهُ، فالذات الشاعرة تؤكّد انكشافها على النور الإلهي:

يا الذي لامني/ ها أنا صار قلبي في سبحات الهوى قابلًا/ صور العشق مهما تعدّد/
وانتثرت في الدروب وريقاتُه/ صار قلبيَ مرعىً لغزلان/ ديرًا لرهبان/ بيتًا لأوثان/
ألواح توراة/ مصحف قرآن/ صار قلبي في سبحات الهوى قابلًا/
صور العشق مهما تعدّد

فتؤكّد الذات الشاعرة المفهوم الصّوفي بأنّ نور الله في كلّ مكان وزمان

يا الذي لا مني إنني أتجدّد/ هو الحب ديني.. وقلبي يدين به/ بين صحوي ونومي/
وأنيَّ توجَّهَ رحلي/ هو الحب مرآتي الغائبة/ هو السدرة الغاربة/
هو الرحلة.. الظلُ.. والحر/ والبرق.. والرعد/ والقِبلةُ اللاهبة

فالذات الشاعرة تعيش بهذا الحب الإلهي، بذاك النور الذي يحيط بها. وفي هذه العبارات تناص مع ابن العربي حين قال:

لقد صار قلبي قابلًا كلَّ صورة ... فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثان وكعبةِ طائف ... وألواح توراة ومصحفِ قرآنِ
أديُن بدين الحبِ أنىَّ توجَّهت ... ركائبهُ فالحبُّ ديني وإيمانيِ

الاغتراب الصّوفي

- وكتابي../ هذا كتابي يبحث مرتحلًا/ عن يميني/ صارعته الرياح طويلًا/
وغابت وريقاته/ سال حبرُ الحروف عليها/ وما زال يبحث مرتحلًا عن يميني

وتوظّف الذات الشاعرة الميتا شعر، ليتّضح لنا أنّ النور الإلهي والعشق الصّوفي للنفس الكليّة هو تماهٍ من قبل الذات الشاعرة لحال مشابهة، فهي تتوق إلى النفس الكلية والتي بدونها تشعر باغتراب.

والشاعر يشعر بغربة في وطنه:

- زورقي../ أتَرى زورقي يبحث الآن عن بحره/ طوح الموجُ مجدافه/ وتلاشت ملامحه/ واعتلته العواصف/ لكنّه صامد يبحث الآن عن بحره/ فعساه يحسّ ذراعيه دافئتين/ تضمّانه في الصقيع

فالزورق يبحث عن البحر فهو بدونه لن يكون له كيان

- تلك أقدامي الآن/ تبحث عن دربها/ تخلع الآن في الليل كلّ جواربها/ تُبعِدُ الآن غربتَها فلعلّ الطريق الوحيدة تدرك لهفتها/ وتعاود صحبتها من جديد

والقدمان تبحثان عن درب فلا حاجة لهما دون درب

- أعيني الآن تبحث عن غدها/هي ترنو إلى الشمس/ترنو إلى البحر/ترنو إلى نجمة لا تحول كُحِّلت بالحكايا التي تحمل العشق/ للقادمين/ ذرَفت دمعة الوجد/
وهي تشاهد عشق الطيور/ ورقص الزهور/ وترسم في خضرة النهر/ حلم الصبايا/ ومرفأة الحائرين
- هل ترى الآن مركبتي/ تسأل الأرض عن سفري/ لا تجيب../ خرس الدرب والمنحنى/ والمصابيح جفّ عليها السنا/ والذي وعد الأمس أن يلتقي/
نسي الوعد حتى استحال مُنى/ فمتى يقترب/ سفري.. ويهدهد مركبتي/
وأطوف بها في المدى/ والعينان تبحثان عن غدها عن حلمها:
- يا الذي لامني في الهوى/ تلك حال اشتغالي بعشقي

فالذات الشاعرة تعلن توقها للتغيير ولإيجاد النور، وتتماهى بهذا مع رحلة الصّوفي الذي يحاول أن يتّحد بالنفس الكلية من خلال حواسه جميعها النظر بالعينين واللمس من خلال حركة اليدين والقدمين:

تلك حال اشتياقي لأحلاميَ الغاربة/ فانزع الآن غمّة عينيك/ ظلمة قلبك/ كُفّ ملامك/ أفصح عن السرّ في رئتيك/ أنا.. أتجدّد ليل نهار/ وأنت../ كما أنت../ ترضى بصمتك/ ترضى بموتك/ تلبس أردية اللوم/ ترضى بأحلامك الغاربة

فالذات الشاعرة تلوم الذي لا يحاول أن يتحرّك ويعيش حياة سلبية، بينما هي تسعى إلى التغيير: "أنا.. أتجدّد ليل نهار، وأنت كما أنت ترضى بصمتك، ترضى بموتك.

وترسم الذات الشاعرة في قصيدة اللوحة[1] لوحة ويتّضح هذا في العنوان ألوانها تصف مراحل انتقال الذات الشاعرة:

الليل اشتعل/ غدا تنورًا من لهب/ ترتسم على لوحته سنوات القحط/
وسنوات الخصب/ وتمرّ مواكبُ فرسان العشق الأولى/ وحمامات الصحب../
أطفال.. لُعب.. أحلام.. ألوان../ أصوات.. موسيقى../ لا أعرف من أين تجئ../
- القلب اشتعل/ تشظّى/ عشق../ تلظّ../ اعتصر../ تشكى فَنِيَ.. تزكى/ سوّاه بيديه
ربُ العشاق.. ورواه بالحب/ أفتح فيه أبوابًا/ ونوافذ/ أرسُم بين يديه قصائد/
ومواجد/ وحدائق مثمرة../ وقناديل../ وحلمًا.. بين اليقظة والنوم../ الانتقال من/
الظلمة: "الليل اشتعل

الوجع: القلب اشتعل" تشظّى، عشق.. تلظّى.. اعتصر.. تشكى فَنِيَ. تزكّى إلى حالة انعتاق الروح والانتقال إلى النفس الكلية" رب العشق"، "رب الأفئدة الأوّاهة"

- يا رب العشق/ ورب الأفئدة الأفواه

لكن تعيق الذات الشاعرة مخاوف بأن تخفق بسبب انتصار كلّ ما هو مُعادٍ لانعتاق الروح: "ريح عاصفة بالجدب" "طوفان الكرب":

أخشى أن تقبلَ ريح عاصفةٌ بالجدب/ أو يقبلَ مطر../ يطفئ قلبي في طوفان الكرب/
أخشى يا رب العشّاق/ أن أفقد هذا الوهج العذب!

يظهر تماهي الذات الشاعرة مع الروح الصّوفية من خلال هذه الأبيات فيجمعهما "الوهج العذب" كذلك المعاناة، فمعاناة الكلمة في ظل وجود من يقمعها تُشبه معاناة الصّوفي كمأساة الحلاج وعدد كبير من الصّوفيين في سبيل الوصول إلى النور والإشراق.

[1] أحمد سويلم، ديوان: **مكابدات أول العشاق**، 2019: ص 15.

وفي قصيدة "الحلم الغائب"[1] يتناص مع الآية الكريمة حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ[2] البقرة: 187].

حدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عبدالله بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ τ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ :حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ] البقرة: 187]. قَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وِسَادَتِي عِقَالَيْنِ: عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، أَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ.

ليتحدّث عن سواد الليل وظلمته وبياض النهار وإشراقه، وهذه الرحلة التي تمرّ بها الذات الشاعرة، من الظلمة إلى النور وهي رحلة الصّوفي نحو إشراقه:

الحين تجلى الخيطُ الأبيض/ والخيطُ الأسود/ شهق بأعلى الشجر المبتل/
عصفوران../ أحدُهما كان الشمس/ والآخر كان القمرُ الساهر

لتصل الذات الشاعرة إلى تحقيق الحلم الذي يعادل الإشراق الصّوفي:

أسرعت أنادي:/ دلّاني يا أحلى الطير/ على حُلمي الغائب/ قالت شمسي:/
حلمك في خيط شعاعي/ قال القمرُ الساهر:/ حلمك في جيدي الفضّي/
تلفتّ إلى دربي/ فرأيت النور يصارع تنين العتَمة

فالرحلة ليست سهلة إلى طريق النور بحيث ستمر بمراحل:

* العلو
* الصفاء
* الاتحاد بالنفس الكلية.

ورأيت ندى الأشجار/ يتساقط فوق الخضرة من حولي/ يتخلّق منه وجه مبتسم/
يعلو.. يصفو.. يتمدّد/ تتلاشى فيه الشمس/ وسحر القمر..

[1] احمد سويلم، 2018، 21.

[2] سورة البقرة: 187.

وتتناص الذات الشاعرة مع الحكاية الأسطورية حول طائر الرخ، ذاك الطائر الأسطوري هائل الحجم الذي تحدّثت الأساطير عن قدرته على حمل وحيد القرن، وقد ورد ذكره في رحلات السندباد البحري في كتاب "ألف ليلة وليلة".

وكأنه هو المنقذ والمخلّص الذي سينقل الذات الشاعرة إلى النفس الكليّة إلى الحلم الصّوفي بالوصول إلى النور، على أرض الأحلام.

هممتُ بأن أسأله عن حلمي/ فأشار بهدبيه.. بالصمت/ مرّت لحظات مبهمةٌ/
يخفق فيها قلبي../ ويكاد يجن../ همست شفتاه:/ - حلمك بعد بحار سبعة/
وعليك الآن/ أن تصل الخيط الأبيض/ بالخيط الأسود/ ليصير العصفور القابع/
فوق الأغصان/ رُخًا.. يحملك إلى حلمك/ مسكت بأسناني الخيطيْن/
هبط الرخ أمامي يدعوني أن يحملني في أظفاره

لكن حتى الأحلام تجد من يوقظها ويلغيها، فجاء تساؤل الذات الشاعرة مريرًا، فهل نجح طائر الرخ بنقله وإيصاله إلى حلمه أم ما زال قابعًا في مرحلة تمنّي ما لن يحدث:

وهنا.../ نبحَثْ خلفَ النافذة/ كلابُ الشارع/ فصحوتُ../ أفقت حزينًا من نومي/
لا أدري/ هل صعد الرخ إلى حلمي/ أم أفلتني من أظفاره..؟

وفي قصيدة "أحوال"[1] يوحي العنوان بالمعنى، فعندما تتغيّر حال الذات الشاعرة من حال إلى أخرى، حين تقرّر أن تحرّر روحها كما يفعل الصّوفي، فهنا تماهٍ مع ما يمرّ به الصّوفي في مراحل انعتاق روحه وانطلاقها وخروجها من الجسد متّجهة نحو النور، باتجاه النفس الكلية:

وقيل احمل عصا التسيار/ وارحل في بلاد الله/ وخُض ليل المتاهات الذي/
يُشقى خطاك ويصعقُ الأحلام/ وقيل اسكبْ دموعَ الشوق/ كيف تشاء../
إلى أن يستجيب البحر/ حين يمد قلبك بالدموعْ/ فترقي طائرًا في سلمّ العشق
المقدّسْ../ خالعًا قشر التوجسْ../ فانيًا في لذّة الأنوار/ لا تبغى الرجوعْ

[1] أحمد سويلم، أحوال، 2010، 51.

فهنا تتّضح المراحل التي تمرّ بها الذات الشاعرة في انطلاقها نحو النور، من خلال توظيف مفردات صوفية، إضافة إلى توظيف الحوار، ومن المفردات الصّوفية المذكورة أعلاه: العشق المقدّس، لذّة الأنوار، دموع الشوق.

هذه العبارات توضح التّدرج في ارتقاء الروح الصّوفية نحو باريها لتتحد معه:

المرحلة الأولى:

مرحلة دمع الشوق: اللّهف للقاء الروح الإلهية ودموع الفرح لخطو الروح خطواتها الأولى.

المرحلة الثانية:

العشق المقدّس: أي لقاء العاشق بمعشوقه، أولقاء الروح بالنفس الكلية.

المرحلة الثالثة:

لذّة الانوار، أي الوصول إلى نشوة اللقاء وذروته بعد بلوغ النور الإلهي.

وقيل اقرأ كتابَ الوجد محفوظًا

مع الملكوت/ تدركْ لوعةَ الآلام/ حين القلبُ يهجرُ صدرَك الفاني/
ويصعدُ نطفةً محفوفة بالنور والأسرار

فهنا وصف دقيق لمرحلة صعود الذات الشاعرة للقاء النفس الكلية، فتُكابد مشاعر مختلطة: النور والأسرار وهذه مفردات صوفية، فالنور يكون للروح حين يكشف الله لها سرًا من أسرار الحياة، وبهذه يفضّلها على بقيّة البشر، لأنّها حصلت على سرّ من كنه الحياة اختارها الله لهذا وميّزها به.

وهنا نعود للذات الشاعرة التي رأت بمراحل انعتاق الروح الصّوفي تماهيًا معها، فهي تشعر بأنّ الله ميزّها وخلقها لتكشف النور والحجب عن الناس لأنّ الله حباها بالنور الذي لا ينطفئ:

وقيل اخلع قناع الطمي/ تحنو شمسُك الزهراءُ/ أُمًا فوق روحك/ تبعد الريح العتية/
في مدى الأسفار/ وقيل اجمع ثمار الحكمة الأولى/ وعُدْ طفلًا/ على شفتيه.. في عينيه
دهشته/ ولهفته/ وغُذَّ السير فوق الشوك/ تتفتحِ الدروبُ المغلقات/ وتَسقُط الأسوار

ما يميّز الذات الشاعرة هو هذا الشغف " والدهشة" و" اللهفة"، وهي أمور ثلاثة تُحيي الروح، وهذا تماهٍ آخر مع الصّوفي الذي يرتقي بروحه مبتعدًا عن شهوات النفس والجسد.

وقيل اصرف عيونَك عن فضاء الأرض/ خلّ بصيرةً القلب الندية/
ترتوي من ذلك الفيض/ الذي لا ينقضي.. أو يندثر

وهنا نداء الذات الشاعرة المماثل للصوفي بضرورة انعتاق الروح والابتعاد عن شهوات الدنيا متمثّلة بمفردتَي" فضاء الأرض" وانطلق إلى النفس الكلية متمثلة بمفردة " الفيض".

وقيل اعْقِلْ خطاك/ كفاك../ واجعل ما تبقى فوق درب الوجد مشهودا/
وطر في جنة الأشواق نسرًا/ ليس يضنيه الخور../ وقيل الهثْ فهذا الوقت.. مقدورُ/
وهذا الخطو.. مقهورُ/ وهذا الوصلُ.. مشطورُ/ وهذا الفيض بالأوجاع مغمورُ/
وهذا الحلم في الآفاق منثورُ/ ومن يسبق.. يصلْ.. يملكْ/ من الأحلام وصلًا ما به زورُ

وتتوق الذات الشاعرة للحلم وهو التحليق والاتحاد مع النفس الكلية، واتّضح هذا المعنى من خلال مفردات: "طر في جنة الأشواق سرًا"

لبلوغ النفس الكلية" الفيض"/ .....

ويتّضح التماهي بين الذات الشاعرة والروح الصّوفية، فرحلة الصّوفي تُشبه رحلة الذات الشاعرة، فحتى يصل الصّوفي إلى الإشراق يمرّ برحلة معاناة:

* بدءًا من الزهد
* ومن ثمّ التّقشف وجهاد النفس وقهر الجسد
* وحتى بلوغ النفس الكليّة

والأمر ذاته يحدث للذات الشاعرة، فالزهد يقابل مرحلة التطهير ويقابله الإشراق الصّوفي

وهنا تؤكّد الذات الشاعرة أنّ الشعر يقوم بعملية التطهير والإشراق في المفهوم الصّوفي. فباستطاعة الكلمة أن تؤثّر وتغير في مجتمعها، وهذا ما تحاول الذات الشاعرة تأكيده:

أشرت إليه في ضَجَرٍ/ وقلت: كفاك../ إنّي من شِغاف القلب/ أعشق خطوتي/
حتى لو انكسرت على دربي/ وإني أعشق الآلام/ فهي طهارتي من شدة الكرب/

أكابدها.. أناجزها/ أباغتها بسخرية ابتساماتي/ وأعلن أنني في علّتي/ صبٌّ تحمل فُرقة المعشوق/ لكنَّ احتدام البرق في جنبيه/ لا يهدأ/ وفي عينيه.. لا يصدأ

وبتوظيف الميتا شعر يتّضح اقتناع الذات الشاعرة بأنّ كلمتها كشفت الأسرار وأخرجت النور، فوصلت بها الذات الشاعرة إلى مرحلة الإشراق المتماهية مع إشراق الصّوفي:

وقلت: كفاك/ إني قد حككتُ الجلدَ بالأظفار/ إني قد حشوتُ القلب بالأسرار/
إني قد حقنتُ الخطوَ بالإعصار/ إني قد كسرتُ القيد/ إني قد قبضت اليد/
حتى حين يُشقى خطوتي القوسان/ لا أشكو/ فبحري يحتويه الموجُ والفُلْكُ/
وآفاقي.. هي المُلكُ/ كفاك.. كفاك

فيظهر توظيف الميتا شعر من خلال عبارات " فبحري يحتويه الموج والفلك" ويمكن أن ندّعي أنّه قصد بالبحر، الأوزان والبحور الشعرية.

ويتّضح التماهي المطلق للذات الشاعرة مع الروح الصّوفية في هذه الأبيات:

أشعاري هي الأحلام/ والأشواق/ والأذواق/ هي الإشراق/ والأحوال/ والنسكُ

فتوظّف الذات الشاعرة الميتا شعر عندما تتحدّث عن أشعارها: أشعاري هي الأحلام، هي الإشراق، وهنا يظهر هذا التماهي بين الذات الشاعرة والروح الصّوفية، فهي تعيش إشراقًا يشابه إشراق الروح الصّوفية حين تلتقي بالنفس الكلية، فبالنسبة للذات الشاعرة، أشعارها هي أحلامها وأشواقها وأذواقها وإشراقها ونسكها، وفي قصيدة "قطرة ماء" يتّضح لجوء الذات الشاعرة إلى الصّوفية رغبةً منها بالانعتاق كما تُعتَق روح الصّوفي بقهر جسده، فالذات الشاعرة مكبلّة بالقيود المجتمعيّة والسياسيّة، بالموجود والمنشود، بالمرغوب والممنوع، فتتمنّى أن تكون قطرة ماء "تملك حريّة أن تهطل أين تشاء:

يعبث بي موج البحر/ ويغمرني النهر بطعي الشطين/ ولا أملك حريّة أن أسبح في التيار..
أشهد كيف سحابات المطر/ تكون رذاذًا حينا/ وتغدو حينا سيلًا يخترق الأجساد/
وأراها تملك حريّة أن تهطل/ أين تشاء../ يا الله../ اجعلني قطرة ماء/
أملك حريّة أن أهطل مطرا/ أو أسقطَ في أي بحار/ أو أهمى فوق النهر/
وأغمرَ ما شئت اليابسَ والصحراء/ اجعلني يا رب الماء/ اجعلني قطرة ماء/

سرَّ حياة البشر/ وشوق العشب إلى الأشجار/ ولهف النخل إلى الثمر الرطب/
وعشق القلب إلى الأحلام الخضراء/ اجعلني قطرة ماء

وهذا ما يفعله الصّوفي كقطرة ماء تسبح في كل مكان:

أتحرّر من قهر الزمن/ وعصف الريح/ وألم القلب الموجع/ اجعلني قطرة ماء/
أعشق ما شئت الحوريات/ أسْرِي عبر حكايات الوجد الأزلية/ وأنبت فرحًا../ ونباتًا/
وثمارًا/ وفراشات/ وأحكي في الليل حكايات وحكايات/ وأوقظ في الصبح الحسناوات/
يحملن جرار السقيا

فتصل عندها الروح الصّوفية إلى مرحلة الإشراق والانطلاق، مرحلة النور التي تتوق إليها الذات الشاعرة:

ويرددن النغم بإشراق الوجه/ اجعلني يا رب الماء/ قطرة عشق في دنيا/
هجرت أرض العشق/ وغرست صبارًا في الأفواه/ اجعلني القطرة/ أحيا سيد أنهار العالم
سيد أمواج العالم/ محمولًا فوق جناح الطير/ إلى آفاق الشوق

وتؤكد عبارة "محمولًا فوق جناح الطير إلى آفاق الشوق" المعنى الصّوفي، فالصّوفي يحلّق بروحه إلى الآفاق شوقًا للقاء الذات الإلهية لينتشي بعدها، فيشعر أنّه حر، هذه الحرية التي تتوق إليها الذات الشاعرة، وقد تكون الذات المثقّفة التي تعيش زمن الرقابة السياسيّة والاجتماعيّة وتتوق لتكون حرّة وتنطلق في تعبير عن الظلم الاجتماعي والسياسي.

لهذا وجد شاعر العصر الحديث في الصّوفية ملجأً ليعبّر عن رغبته بالانعتاق، فهو يشترك مع الصّوفي بأنّه صاحب كلمة لا ترضى بأن تكون سجينة، وتريد الانطلاق:

اجعلني قطرة ماء/ دفقة نور/ صبوة حلم/ تتجسّد في ملكوتك[1]

وفي قصيدة "تجليات وراء الحجب"[2]

ورحتُ أمتطي الباشقَ/ طائرًا إلى السماء/ تلفحني الشمسُ/ ويحتفي بمقدمي.. الهواء/

[1] أحمد سويلم، 2017.

[2] أحمد سويلم، ديوان مرافئ الظمأ، ص :10.

أجوزُ أطباقُ الفضاءِ/ من حولي.. منازلُ النور/ وألفُ رؤية للشوق والرجاء../
ودَدتُ لو علوتُ المساء السماء/ أسترقُ السمع/ وأكشف الحجب/ وأرشُف البهاء..

فالصّوفي يتوق للصعود والاتّحاد بالنفس الكلية لتكشف الحجب أمامه، وهنا تمّ توظيف مفردات صوفية: كشف الحجب:

ساءلني الباشقُ:/ - أين تريد مهبِطَك؟/ قلت له: ليتك لا تعجِّل الهبوط/
فإنني أودّ أن أظلّ صاعدًا/ ولا أعود../ قال:../ - لكنني لا أملك القُدرةَ/
أن أظلّ هكذا أواصلُ الصعود/ هناك في المدى.. إذا تقدمتُ احترقت/
قلت: احتملني أبلغ السدرةَ في العلياء/ وساد صمت بيننا

وتكمل الذات الشاعرة رحلتها والصعود إلى الذات الإلهية عبر طائر الباشق وصولًا إلى سدرة المنتهى. وهنا توظيف لتناص ديني

جاء ذكر سدرة المنتهى في القرآن الكريم في سورة النجم، قال الله -تعالى-: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى* عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)،[١] وفيما يأتي بيان معنى سدرة المنتهى:

لغةً: يراد بها شجرة السّدر المعروفة باسم شجرة النبق، والتي يكثر استخدام أوراقها بين الناس، وهي شجرة ورد ذكرها في موضع آخر من القرآن، على أنّها ليست من أشجار الدنيا العظيمة؛ وذلك عندما قال الله -تعالى- عن قوم سبأ: (وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ).

اصطلاحًا: هي الشجرة التي وقف عندها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، مع جبريل -عليه السلام- في رحلة المعراج، وهي شجرة تقع على يمين العرش في السماء السابعة، وهي الشجرة التي ينتهي إليها علم الملائكة. مكان سدرة المنتهى وما بعدها تباينت أقوال العلماء في تحديد مكان سدرة المنتهى، وذلك بسبب تنوع روايات الصحابة -رضوان الله عليهم- في نقل حديث الإسراء والمعراج، وتلخّصت أقوالهم كما يأتي: أنّ سدرة المنتهى تقع في السماء السادسة؛ مستدلّين برواية الصحابي مالك بن الصعصعة. أنّ سدرة المنتهى تقع في السماء السابعة؛ وهذه رواية أنس بن مالك. أنّ سدرة المنتهى تقع فيما بعد السماء السابعة؛ وهذه رواية عبد

الله بن مسعود. وقد جمع العلماء بين الأقوال السابقة ورجّحوا بينها، فقد نُقل عن الإمام النّووي أنّه رجّح أن تكون سدرة المنتهى أصلها في السماء السادسة؛ وتمتدُّ فروعها وغصونها إلى السماء السابعة وما بعدها، وهذا هو الرأي الأقرب للمنطق والصواب -والله أعلم-.

وصف سدرة المنتهى: وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سدرة المنتهى عند عودته من رحلة المعراج قائلًا: (رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وإِذَا ورَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هذِه سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وإِذَا أرْبَعَةُ أنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ونَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلتُ: ما هذانِ يا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ في الجَنَّةِ، وأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ والفُرَاتُ)، فيكون وصفها من خلال الحديث الشريف كما يلي: ثمارها كبيرة، وكثيرة. أوراقها كبيرة جدًا. تنحدر منها أنهار الجنة.

وفجأةً سمعتُ صوتًا حانيًا/ كأنه الغيثُ الذي/ يهبط فوق قلبيَ المريد:/
- لا تنس أنك اختلفت الآنْ../ عن سائر البشر/ فقد تخففت من الأدران والأكدار/
وقد كسَتْك الشمسُ نورَها/ وملأ الصدرَ هواءٌ قادم/ من عالم الأسرار/
أمامك الآن بِساطُ الشوقِ والمحبة/ يحملك الآن لرؤية الأحبة..

يرى الصّوفي أنّ الله عندما منحه قدرة كشف الحجب، فإنّه اصطفاه وجعله مختلفًا عن بقيّة البشر، وأنّ الله منحه النور: "وقد كستك الشمس نورها"، عندها يحين موعد لقائه بالنفس الكليّة: "أمامك الأن بساط الشوق، يحملك الآن لرؤية الأحبّة".

فتأتي مفردات الصّوفية لتؤكّد هذا المعنى: كستك الشمس نورها، عالم الأسرار، بساط الشوق.

إضافة للمعنى الباطن في عبارة "وملأ الصدر هواء قادم" وهذا دلالة على مصطلح "البسط" الصّوفي نقيض القبض، ويتابع شرح تفاصيل الرحلة الصّوفية باتجاه الذات الإلهية:

ها أنا ذا فوق بساط العشق/ أحمل أورادي وأحوالي/ وسرَّ الشوق/ فلتتجلَّ لي مولاي..

ويؤكّد تخلّص الصّوفي من متع الحياة وشهواتها، فيقهر الجسد ليحرّر الروح ويعتقها من أسر الجسد:

قد تجرّدتُ من الطين/ ومن خُشاش الأرض/ واشتغالِ الخطو/ من هوانِ الرق../
وها أنا أطمع في اكتمال العتق

ليصل إلى مرحلة الكشف، فيظهر له النور الإلهي، نور الحقيقة، ولكن تعود الذات الشاعرة لتؤكّد أنّ مرحلة الانعتاق ليست مرحلة سهلة

قيل: انهل الآن كؤوس النور/ كي تضيء صدرك الذي/ ما زال مظلمًا../
ويشتفي قلبُك من أوجاعه القديمة/ شربت ألف كأس.. ما ارتويت/
أدركتُ دنياي وقد تضاءلت/ وما بين إبهامي وسبابتي/ أفلتُّها.. فاحترقت/ تناثرتْ بلا رجوع

ونتخيّل المشهد الدرامي لعبور الصّوفي في رحلته الصّوفية نحو النور الإلهي:

قيل: اصعد الآن لهذا البرزخ البديع/ مُنِحتَ سرَّ القرب والقبول../
أغمضت عينيَّ فقادني الشوق/ لحضرة الذهول../ وأشعل الوجدُ حنيني/
للجمال.. والجلال/ والتكبير.. والتهليل.. والترتيل/ خلعتُ نعليَّ.. تطهرتُ/
سجدت في رحاب السُّكر/ لا أدرى إلام دامتْ نشوتي/ حتى أفاقتني يد../
كأنها النسمةُ في القيظ/ أو المرفأ للغريق..

ويتناص مع حديث قدسي من خلال عبارة " لا عين رأت ولا أذن وعت وأنصتت"

صحوت../ ناديت../ وبحثُ باسمه الأعظم/ فَأَصابَني الذهول/ /لا عينٌ رأت/
ولا أذْنٌ وعت وأنصتت

وهذا النصّ المذكور ليس بآية من القرآن الكريم، ولكنّه جزء من حديث قدسي رواه البخاري ومسلم ولفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وفي بعض رواياته: ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

ويوضح علاقة الذات الشاعرة بالنفس الكلية من خلال تناص قرآني وتوظيف كلمة "مشكاة" ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض ﴿مثل نوره﴾ أي صفته في قلب المؤمن ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة﴾ هي القنديل والمصباح السراج: أي

الفتيلة الموقودة، والمشكاة: الطاقة غير النافذة، أي الأنبوبة في القنديل ﴿الزجاجة كأنها﴾ والنور فيها.

صحتُ بأعلى الصوت:/ - جل وجهُك الذي احتواني/ وأزال العِيَّ من لساني/
أحسست أني عينُه/ وسمعه/ ونطقه/ وأنني المشكاة والمصباح../
أجريت دمعي فوق لوحتي المحفوظ:/ {قد وجدتُ لي سكنًا/ ليس في هواه عَنَا/
إن بعدتُ قرَّبني/ أو قربتُ منه.. دنا}*

وفي وصف رحلة الذات الشاعرة للقاء النفس الكلية يتناص الشاعر مع القرآن وقصة موسى ولقائه بالله عزوجلّ من خلال عبارة "خلعت نعلي" والتي تتناص مع آية:

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)"[1]

وفي قصيدة "المدار" ومن خلال الحوار المتخيّل بين العبد وربّه تتناص الذات الشاعرة مع قصة النبي موسى الذي حين رأى الله خرّ مغشيًا عليه، فقد سار موسى إلى طور سيناء، فكلّمه ربه وناجاه، وقرّبه وأدناه، حتى سرت في نفسه روعة وهزة، أجّجت في فؤاده نار الشوق إلى رؤية ربه، فسأل ربه أن يراه، وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه فقالوا: أرنا الله جهرة، فأجابه الله -عز وجل- بقوله: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [الأعراف: 143].

تلقّت موسى، فإذا الجبل قد دُكَّ وغار في الأرض، فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم، فخرّ مغشيًا عليه من هول ما رأى، فشمله الله -عزّ وجلّ- برحمته ولطفه، فأفاق من صعقته وقام يسبّح الله الكبير المتعال.

أخذ موسى الألواح التي فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل موعظةً وتفصيلًا لكلّ شيء، فقال: يا رب: لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحدًا قبلي، فقال الله -عزوجلّ- له: (قَالَ يَا مُوسَى

[1] سورة طه: 12.

إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين) [الأعراف: 144].

يسأل: من بالباب؟/ أجيب: أقدم عشاقك/ يسأل: ماذا تبغى؟/ - أود لقاءك.. أتملّى وجهك

- تعلم.. موسى خرّ صريعًا حين تجليتُ/ فكيف جَرُؤْت على هذا الحلم

فعبارة موسى خرّ صريعًا هي تناص مع قصة موسى عليه السلام مع الله، ويتّضح توق الصّوفي إلى لقاء الله وهنا المنحى الصّوفي من خلال الأبيات التالية:

قلت: نزعتُ جذور الخوف من القلب/ وغرست الحب../ أقسم أنّي أمتلك جدائل عشق/

قبضتها روحي/ من أشجار لا تنبت في الأرض/ ولا يحملها جبل../ جرّب يا رب الناس/

أن تفتح لي بابك/ حتى لو أحرقني وجهك/ حتى لو أغرقني طوفانك/

حتى لو ألقتني ريحك في صحراء الموت/ فأنا العاشق ميتًا أو حيًا/

قال: ماذا تمتلك من الوجد/ قلت: شغاف القلب يشف/ ينم عن الأضلاع/

فلو شئت مددت له يدك الحانية/ وضمخت النطفة بالنور وبالنفحات /

ولو شئت أحلت الأضلاع رمادا/ فتسبح وتقدس لك/ ذرات.. ذرات/

قال: أظنك خاويًا لا تحمل أشواق الإبحار/ قلت: أنا لا أحمل شيئا فوق الأعناق/

لكنى أطوى في قلب القلب/ تباريح الأشواق/ جرّب.. وامتحن العشق المتوهج/

سنفجر أنهارا وبحارا/ شهبًا.. أقمارا/ نطفًا دافئة.. أسرار/ أقسم يا مولاي/

إنّي مسكون بالنشوة في عشقك/ ثمل بالنور.. فلا تفرغ كأسي/

هذي ناري شبت في أعشاب الأرض

تظهر المفردات الصّوفية التي تؤكّد العشق الإلهي، والنشوة للقاء النفس الكلية من خلال المفردات التالية: العشق، الشوق، "مسكون بالنشوة في عشقك".

"ثمل بالنور فلا تفرغ كأسي" وهنا السكر الصّوفي والخمرة الإلهية، فالخمرة الصّوفية "في طابعها الحسّي المباشر تتجاوز المعطيات المادية إلى معطيات روحية، وبالتالي، نجد هذا التجريد المثالي في وصف الخمرة العرفانية يتجاوز وصفها الحسي إلى صفات تميّزها عن الخمرة العاديّة، فهي صافية، لطيفة، نورانية، بها قامت الأشياء، وإليها اشتاقت الأرواح،

أصلها ليس من الكرم، وإنما هي أزليّة صافية، أصلها من الطيبات، تصل بالعارف إلى حالات الغيبوبة والفناء.[1] وعبارة "النور والنفحات".

وتُحيلنا عبارة " قبضتها روحي" إلى مصطلحي القبض والبسط الصّوفيين، فقبض الروح يأتي بعد الخوف أثناء رحلة اللقاء بالنفس الكليّة، فالخوف من عدم نجاحه بلقائه، والبسط هو الرجاء بتحقّق هذا الحلم الصّوفي والصعود في هذه الرحلة الإلهية:

فصعدت.. صعدت على اللهب الدافئ/ أخفي سرّي/ أخرس بوحي/
وأخبئ روحي في أسدال الليل/ أطوف.. أطوف وكعبة حلمي/
تجذبني لمزيد من هذا القرب/ أنا ليس لخطوي درب/ لكن قلبي.. لا يعد له قلب/
من زمن ودع جسدًا../ وانغمس بلا خوف/ بين نجوم الكون/
واتّخذ مدارًا في آفاق الحب/ فمتى تتجلّى يا مولاي/ وتطهّر روحي بالقرب

وتُرافق مشهد مرحلة الصعود إلى النفس الكليّة المفردات الصّوفية الآتية: القرب، ويقصد الحلم بالقرب من الذات الإلهية، عندها تتحقق مرحلة التطهر: "وتطهر روحي بالقرب".

وعبارة " أطوف أطوف وكعبة حلمي" تظهر مرحلة قهر الجسد من أجل ارتقاء الروح.

وفي قصيدة "المجذوب"

وجهي.. من رمل الصحراء/ وقلبي.. من موج البحر/ وجسدي.. من أعواد السنط/
من يبلغني حافة ذا الشط/ لأرى جدي البحر../ وأقذف نفسي بين يدي أمي الشجرة/
من يمنحني القدرة../ من يشفيني من تلك السكرة

ويحتوي العنوان على مفردة صوفية هامّة وهي الجذب.

الجذب هو اختطاف ربّاني للعبد، يختاره بقربه دون أن يبذل العبد جهدًا للوصول إلى هذه المرتبة، وحين نربط العنوان بالاستفهام البلاغي في القصيدة "من يشفيني من تلك السكرة" نعود لمصطلح آخر في الصّوفية" السكر، وهو السكر بالحب الإلهي الذي يغيّبه عن الواقع فلا يشغله إلا الله" والسُكر هنا انتشاء الروح بمكاشفة الحق لها (= للنفس الإنسانية) بسرّه

[1] سميح نصراوي، "الرمز الصّوفي، دراسة تأويلية." **مجلة نادي الأدب**، 12 (شباط، 2016): 7.

وبأنه هو هي وهي هو؛ فتطرب أشد الطرب لاكتشاف هذه الحقيقة فسكرها إذا شدة غبطتها بمعرفة سر وجودها، وهو أن وجودها هو وجود الله أو أنها هي الله أو أنه ليس ثم إلا الله وفقًا لأنواع الاتحاد[1]

وأن يسكنني نوح فوق سفينته/ يدعوني قبل العاصفة وقبل الطوفان/ لكنّي لا أصْغي/
تأسرني عينان على قمة تل/ تحضنه الشمس/ أشعلت شموعي من أجلهما/
وشحذت الحس../ هٰأنذا أقف وحيدًا/ في منتصف الدرب../ تدوّي في أذني صيحة نوح/
ويحاصرني الطوفان.. وينفطر القلب/ أتلفت.. أبحث عن رفقة عمري/
حتى تحملنا في البحر سفينته الموعودة/ أذهب وحدي../ ويسائلني الحرّاس: إلى أين؟/
أتلفت.. يرتعش القلب/ ويقفز من مخبئه مشغوفًا/ قلت: إذن أتوقّف من ناصية
الشوق/ وافتح صدري للريح/ وقلبي للطوفان/ وعيني لأحلام العينين/
أتوقّف فعساها الريح الحانية/ تهبّ على وجهى.. تنشلني/
تطبق بنواجذها فوق الجسد العاري/ وتطهّره من أدرانه..

من خلال هذا التناص الديني لقصة نوح تتّضح مصطلحات صوفية منها ما هو ظاهر في القصيدة، ومنها ما هو باطن نلمسه من وراء السطور، فالذات الشاعرة تعاني من اغتراب من واقع لا يشبهها، وهذا هو اغتراب الصّوفي، وتحاول البحث عن الخلاص أو التطهير بالمفهوم المسيحي، والذي يقابلهما في المصطلحات الصّوفية الزهد من خلال البعد عن هذا العالم والإشراق من خلال الحلم بواقع جديد وأناس آخرين كما حصل مع قصة النبي نوح.

فاتّضحت المصطلحات التالية الظاهرة من خلال مفردات في القصيدة: تطهّره من أدرانه، ابن النور، المجذوب، بساط النشوة والشوق، الطوفان، أصعد، طيفًا نوريًا.

وفي قصيدة المريد[2] بدءًا بالعنوان، المريد هي مفردة صوفية، فالمُريد رتبة من رتب الصّوفية،

جاء ربيعك يا قلب/ تهلل.. وتغنى../ تتلو أشجارك رقيتها نشوى/ ويصلي الصفصاف../
ويركع من العشق النرجس/ ثملت روحي../ فانطلق الطير.. وحطّ على قمم الأشجار/

[1] عبد الرحمن بدوي، **شطحات الصّوفية**، ج. 1 (الكويت، 1976): 18-17.

[2] أحمد سويلم، ديوان **إلى ملكوت الحب**، 2019/1/27، ص 2.

وانفلق الصبح../ يتلو آيات الحمد/ ويغنّي أغنية الشوق/ صحت الوردة.. قالت للبلبل:/
- أترى السوسن يصمت لا يتكلم/ قال البلبل: عجبًا.. إن له ألف لسان/
لكن ما سرّ الصمت؟/ حط البلبل قرب السوسن يسأله:/
لكن السوسن كان تأجج وجدا/ صار أصم الأذن/ ومنشرح القلب/
سأل البلبل قُبَّره كانت تعلو قبة مئذنة/ قالت: صمْتُ السوسن يا صاح/ بساط سحري
يحمله أعلى من مئذنتي../ لا أدرى أين../ عاد البلبل للوردة.. يحمل جنّيّته/
فإذا الوردة ساجدة في صمت/ ألقى البلبل بالأسئلة حزينا في موج البحر/
وقصَّف ريش جناحيه/ وخرّ مريدًا في صمت

وصمت المريد لفهم الصورة الحقيقية قبل أن ينطق "صمت السوسن بساط سحري"، "صار أصم الأذن" و"منشرح القلب" أي بصيرته هي التي تقوده.

والصمت هو أحد أركان التصوف لدى المريد، وهو خطوة مُهمّة من خطوات عبادة المريد لترويض اللسان وللتفكير.

أترى السوسن يصمت لا يتكلم
- ✓/ لكن ما سر الصمت
- ✓ /صار أصم الأذن/ ومنشرح القلب
- ✓/ صمْتُ السوسن يا صاح/ بساط سحري/ يحمله أعلى من مئذنتي.. / لا أدرى أين..
- ✓/ فإذا الوردة ساجدة في صمت
- ✓/ وخرّ مريدًا في صمت

الصمت من مبادئ الصّوفية، قد يكون صمتًا لاستيعاب الكشف والفيض الإلهي، أو صفة أخلاقية من صفات الصّوفي يستمع بقلبه ويصغي لكلّ ما حوله

وقد فصّل الإمام القشيري في رسالته أقوال الصّوفية في الصمت، ويمكن تصنيف هذه الأقوال حسب منابع الصمت ودرجاته

ومنابع الصمت كما ورد في أقوالهم يمكن إرجاعها إلى أربعة: صمت أدب وصمت بسبب وصمت عبادة وصمت رياضة.

* صمت أدب: فالصمت من آداب الصّوفية وأخلاقهم.
* صمت بسبب: إذ ربما كان صمت المريد سببه كشف أو فيض إلهي أخرس لسانه فلا نطق ولا كلام.
* صمت عبادة: وهو صمت الانسان عندما يأخذ قوم في الغيبة والنميمة.
* صمت رياضة: وهو قول بشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلّم.

أما درجات الصمت فهي:

- صمت اللسان،
- وصمت القلب،
- وصمت السر[1]

الخاتمة

وظّف الشاعر أحمد سويلم في دواوينه الشعريّة الصّوفية بمصطلحاتها ومبادئها وتماهى معها ليعبّر عن أمور حياتية تؤرقه على عدة مستويات بدءًا بالاغتراب، فقد عبّر الشاعر أحمد سويلم عن الاغتراب الذي يعيشه المثقّف حين تُضطهد كلمته. بحيث تماهت الذات الشاعرة مع رحلة الصّوفي نحو النور والإشراق ببحث المثقف والمبدع عن حرية الإبداع، فوجد الشاعر أحمد سويلم بالصّوفية ملاذًا للخروج من واقع مرير، فتماهى مع التطهير الذي يتّسم بالزهد ومراحل الإشراق، ورغبة الشاعر بأن تعمل كلمته على تطهير وعي المتلقي.

لقد وظّف الشاعر أحمد سويلم عدة مصطلحات صوفية: الجذب، الشطح، البسط والقبض، الاتحاد، الحلول، الاغتراب الصّوفي، السكر والصحو الصّوفي ليؤكّد حقيقة يؤمن بها وهي أن الشاعر بمَلَكته الإبداعية يتماهى مع الهبة التي وهبها الله للصوفي أي الكشف.

[1] انظر: القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، **الرسالة القشيرية**، 57-59:

المصادر والمراجع

المصادر

ابن العربي، محي الدين. **رسائل ابن العربي**. وضع حواشيه: عبد الكريم النّمري. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001.

أبو حامد الغزالي. **المنقذ من الضلال**. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، 2003.

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. **الرسالة القشيرية**. د.م.: دار الكتاب العربي، 1970.

المراجع:

أدونيس، علي أحمد سعيد. **صدمة الحداثة**. ط.5. د.م.: دار الفكر، 1986.

بدوي، عبد الرحمن. **شطحات الصّوفية**. ج.1. الكويت: د.ن.، 1976.

الحداد، عباس يوسف. **العذل الديني والمعرفي في الشعر الصّوفي**. د.م.: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

الحكيم، سعاد. **المعجم الصّوفي**. بيروت: دار دندرة للطباعة والنشر، 1981.

سويلم أحمد:

ديوان: **الشوق في مدائن العشق**. القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1987.

ديوان: **شظايا**. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1993.

ديوان: **لزوميات**. د.م.: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1997.

ديوان: **جناحان إلى الجوزاء**. القاهرة: دار قباء، 2000.

ديوان: **ما لم يقله السندباد**. القاهرة: دار دلتا للنشر والتوزيع، 2015.

ديوان: **مكابدات أول العشاق**. القاهرة: دار مكتوب، 2019.

عبد اللآوي، وفاء. "الطير في الأدب الصّوفي، قراءة رمزيّة في نماذج مختارة، مخبر الخطاب الصّوفي." **مجلة علوم اللغة العربية** 14 (2022).

نصراوي، سميح. "الرمز الصّوفي، دراسة تأويلية." **مجلة نادي الأدب** 12 (2016).

مراجع باللغة الإنجليزية

The Experience and Doctrine of Love in Addas Claud'

Ibn 'Arabî, https://ibnarabisociety.org/love-in-ibn-arabi-claude-addas; Translated from the French by Cecilia Twinch on behalf of the Muḥyīddīn Ibn ‘Arabī Society for the Symposium at Worcester College, Oxford, May 4–6, 2002.

Snir Reuven. Contemporary Arabic Literature: *Heritage and Innovation;* Edinburgh University Press, 08 February 2023.